

الحياة العلمية في بلاد الشام في أيام المماليك

د. نقولا زيادة

١ - المقدمة :

بلاد الشام بين سنتي ١٢٥٠ و ١٥١٦ ، جزءاً من دولة المماليك . فقد حكم سلاطينهم مصر وبلاد الشام والحجاز . وقد كان السلطان هو صاحب الأمر في جميع الأمور السياسية والعسكرية والإدارية . لكن الناس في هذه المنطقة قد اعتادوا من قبل أن يكون الخليفة العباسي البغدادي هو صاحب المركز الأول في دولة الاسلام . ذلك أن القضاء على الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١ على يد صلاح الدين أعاد الاعتراف بالخلفاء العباسيين الى مصر وبلاد الشام . صحيح أن ذلك لم يقض على جيوب شيعية هنا وهناك ، لكن المهم هو قبول الناس عامة بالخليفة العباسي . ومن هنا فقد رأى الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦/١٢٦٠ - ١٢٧٧) ، أن يطمئن الناس الى وجود خليفة على رأس الدولة ، فعهد الى احياء الخلافة العباسية ، ولكن في القاهرة ، في شخص المستنصر (٦٥٩ - ٦٦٠/١٢٦١) . لكن الذي حدث هو أن الخليفة انتدب السلطان المملوكي للقيام بالحكم فعلاً ، وقد سمي بيبرس قسيم أمير المؤمنين . واستمر الأمر على هذه الحال .

وقد تم على أيدي المماليك الأوائل أمران في غاية الأهمية بالنسبة لبلاد الشام . أولهما القضاء على الوجود الفرنجي (الصليبي) في تلك الديار . ولسنا ننوي الدخول في تفاصيل هذه الحملات التي توجت باحتلال عكا سنة ١٢٩١ في أيام الملك الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣/١٢٩٠ - ١٢٩٤) .

أما الأمر الثاني الذي تم على أيدي المماليك فهو إعادة الأمن الى بلاد الشام بعد الفوضى التي عصفت بها (١١٧١ - ١٢٥٠) ، ولو أن شيئاً من الخلاف بين أمراء المماليك أنفسهم ظل يؤثر في سير الأمور ، لكن أثر هذا كان أقل أذى مما كان قد ساد قبل ذلك .

وحري بالذكر أن وجود السلاطين والمماليك لم يكن له أساس قانوني ، ولم يتبع أسلوباً واضحاً في الخلافة ، إذ ان السلطة كانت تنتهي دوماً الى الأقوى من أمراء المماليك ، أي الذي يكون له من الأنصار الأقوياء والأتباع من المماليك الذين كان يبتاعهم ويربيهم ويعنى بهم الى حين الحاجة •

ونتيجة لاحتلال المماليك المواليء الشامية ، وخشية منهم أن يعود الصليبيون اليها ، كان السلطان المنتصر يهدم الميناء الذي يحتله • لكن اتضح ، بعد بعض الوقت ، أن المواليء مهمة للتجارة فعدت الحياة الى بعضها ، وقد عمل السلاطين أنفسهم على اعادة النشاط الى هذه المواليء •

ومن أهم ما يجب أن يذكر لعصر المماليك أن المركز التجاري الذي كانت بلاد الشام تتمتع به دائماً عاد اليه الكثير من النشاط •

ولعله من المناسب ، اتماماً للفائدة ، أن ننقل بعض ما رواه بعض الرحالين الأوروبيين الذين زاروا المنطقة ، بما فيها دمشق ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر • والصورة التي تمكنا من رسمها تتلخص فيما يلي :

سورية بلد غني ، وقد كان موقعها على الطرق التجارية ذا فائدة خاصة لها في العصور المتوسطة • ولم تفد دمشق من هذه التجارة فحسب ، بل من الصناعات أيضاً ، وخاصة من الحرف • فقد كانت دمشق تنتج السكر والنقولات وتصنع المنسوجات القطنية والحريية والزجاج والخزف والفخار والزخرفات الحديدية والكاغد والصابون والعطور وماء الزهر والشموع والأحذية • وكانت المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذهب والفضة • وكانت تقرر بالقاهرة ، وكان بعض الأوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة •

وثمة فئة من الرحالين الأوروبيين مثل نيكولو البوغونصي وليوناردو فرسكوبالدي وجورجو غوتشي وسيمون سيولي وفون سوخم الذين زاروا الأراضي المقدسة في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر) ، أو مثل برتراندون دو لا بروكويه ولودفيكو دي فارتما ، اللذين شملت زيارتهم الشرق في الوقت نفسه : جميع هؤلاء قادتهم أسفارهم الى دمشق • وهؤلاء هم مرشدونا في زيارة دمشق في تلك الفترة •

فلنزر أجزاء المدينة المختلفة في صحبة هؤلاء نفر • وقد ضمت رواياتهم بعضها الى البعض الآخر ، فتم لنا منها صورة ذات ألوان زاهية لأسواق دمشق ومتاجرها •

ان جميع الشوارع الواقعة داخل أسوار المدينة تنيرها في الليل مصابيح معلقة فيها • وبيوتها مرتفعة ومبنية من الخشب الذي لا يظهر للعيان ، إذ ان جدرانها الداخلية مطلية باللون الأزرق الفاتح ، وأرضها مكسوة بالفسيفساء • ما أقل البيوت التي لم تكن فيها نوافير منحوتة من الرخام ، هي متعة للناظرين •

ومع أن عشرين ألفاً قد يغادرون دمشق الى مكة لأداء فريضة الحج ، فلم يبد على المدينة كان أحداً تركها • وقد كانت شوارع كثيرة يملأها الناس كما يملأ الناس شوارع فلورنسة يوم عيد القديس يوحنا • وكما كانت المدينة مزدهمة بالسكان فإن شوارعها كانت مكتظة بالتجار والصناع •

ان ما يصنع في دمشق ، من أي نوع كان ، كبيراً كان أو صغيراً ، هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس من جميع الأصناف ، والزجاج من جميع الأنواع . فقد حذق الصانع ذلك كله ، وكان منهم مهرة الصناعة في كل فن . وعندهم الى ذلك غالب أصناف الفواكه التي تحفظ من سنة الى سنة .

ولنعد الى متاجر دمشق : فهذه لا يصدق وصفها الذي لم يرها بأم عينه ، وذلك بسبب كثرة التجار والصناع في المدينة بأجمعها ، داخلها وخارجها . لا يمكن تصور شيء غير موجود في الضواحي . فأجمل ما في الدنيا وأنبله وأشدّه اتقان صنعة موجودة هناك . فلو أنك سرت متفرباً لرأيت المصنوعات الرائعة الأنيقة الدقيقة التي تفريك ، بحيث لو أنك كنت تخفي نقودك في قسبة رجلك لما ترددت في كسرهما وإخراج النقود لشراء بعض ما هناك . فان خيالك لن يمكنه أن يتصور شيئاً وبأي شكل كان الا وجدته هناك . فالأقمشة الحريرية الكثيرة من أي نوع أو لون تجدها هناك على أفضل وأجمل ما يعرفه العالم . وثمة كميات كبيرة من الأقطان ، من أجمل ما في العالم ، بحيث لو شاهدتها أحد الناس ، ولم يكن خبيراً ، لحسبها حريراً لما هي عليه من النعومة واللمعان والدقة والجمال . والبروكار أيضاً متوفر في الأسواق . وما أكثر ما يصنع هناك من طسوت النحاس وأباريقه التي تبدو كأنها من الذهب ، وكلها مزخرفة بنقوش من الأشكال والأوراق ، كما يعمل من الفضة أشياء فنية جميلة تسرّ العين لرؤيتها .

والواقع أن محاولة وصف المتاجر الكثيرة الموجودة في دمشق قد تربك الكاتب ، ولكن قد يقع الذي لم يرها في ارتباك وحيرة أشد . وحتى لو رغب الواحد في تعداد الصناعات وأصناف الأشياء الموجودة ، لاضطر الى الاطالة الى ما لا قبل له به . اذ انه بالإضافة الى ما ذكر فان أسواق دمشق فيها الحجارة الكريمة والجواهر والأفاوية التي تأتيها من الهند . وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الأمور بأن ما في دمشق من المتاجر يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة . ولك أن تتصور ما أجمل هذا كله عندما تقع العين عليه : أما اللسان فيعجز عن القول ، كما يعجز العقل عن التصور .

زار برتراندون دو لا بروكويه دمشق في أواسط القرن التاسع (الخامس عشر) وقد جاءها من بيروت . وبعد زيارته لفلسطين اتجه شمالاً في سورية . وقد ابتاع الأشياء التي احتاجها من دمشق . وما نحن أولاء ننقل هنا تجاربه وملاحظاته عن المدينة بكاملها :

« رافقت أحد أصحابي الى السوق وابتعت رداءين طويلين حتى انهما كانا يبلغان الكاحل ، وعمة كاملة وحزاماً من الجلد ورباطين من القطن أضمت بهما طرف الرداء ، وكيسين صغيرين أحدهما لاستعماله والآخر للحصان [مغلاة] يطعم فيه شعيره وتبنه ، وملعقة من الجلد وبساطاً أنام عليه . وآخر ما ابتعته معطف من الجلد الأبيض ، بطنته بالكتان ، لاستعماله ليلاً . وابتعت كذلك جعبة بيضاء كاملة ، وقد تدلى منها سيف وسكاكين . أما الجعبة والسيف فقد ابتعتها سراً ، اذ لو عرف القيمون على القضاء بذلك لتعرضنا ، أنا والبائع الى مخاطر كبيرة .

« ان سيوف دمشق هي أنبل وأجمل ما يصنع في سورية . ومن الممتع أن يلاحظ الواحد أسلوب الصانع في صقلها . فان هذا يتم قبل أن تسقى ويستخدمون في سبيل ذلك مقبضاً من الخشب

شكت فيه قطعة من الحديد يجرونها على نصل السيف ، وبذلك ينعم ملمسه ، كما تنعم الفارة سطح الخشب . ثم يسقونه ويلمعونه . وهذا التلميع بلغ حداً كبيراً من الاتقان بحيث ان الواحد اذا أراد أن يصلح من شأن عمامته اتخذ من نصل السيف مرآة . وأما السقي فهو كامل ، ولم أر قط سيوفاً تقطع بمثل هذه الدرجة من الاتقان . ويصنع في دمشق ، وفي ما جاورها من الديار ، مرايا من المعدن التي تضخم الأشياء كما في الزجاج العاكس النور . رأيت بعضها وقد وجهت نحو الشمس فعكست من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد ١٥ أو ١٦ قدماً» (١) .

٢ - ملاحظات عامة :

حري بالذكر أن بلاد الشام عرفت في الفترة المملوكية عدداً كبيراً من المدارس كانت مراكز مهمة للتعليم ، على أن المدرسة لم تكن المكان الوحيد ، ولو أنها كانت المكان الرئيسي ، الذي يطلب فيه الناس العلم - على درجات مختلفة - بل كان هناك الجامع والزاوية (الخانقاه) . ومع أن هذه كانت مرتبطة أصلاً بالطريقة الخاصة بها أو التي أنشأتها ، فقد كان بعضها يؤدي دوراً كبيراً في سبيل الاهتمام بالعلوم الدينية .

ويجدر بنا أن نتذكر أموراً ثلاثة تتعلق بالحياة الفكرية ، من الناحية الاسلامية ، عرفتھا البلاد واتضحت بشكل خاص في دمشق بالذات . وهي : إحياء السنة وتقوي الحنابلة والاهتمام بالتصوف .

وقد كان إحياء السنة أمراً طبيعياً بسبب انتصار الأيوبيين وسيطرتهم على البلاد منذ قيام صلاح الدين ، وخاصة بعد القضاء على الخلافة الفاطمية . وكان قاضي القضاة أصلاً من المذهب الشافعي ، حتى بدل الأمر الظاهر ببيبرس . فعين قاضي قضاة لكل من المذاهب الأربعة في القاهرة ثم في بلاد الشام .

وكان الحنابلة ذوي نفوذ وقوة واضحين في القرون السابع والثامن والتاسع (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) ، وقد كان للهجرتين اللتين ذكرتا من قبل أثر في ذلك : هجرة جماعة ابن قدامة الذين تركوا بيوتهم قرب نابلس واستقروا في دمشق ، ومجيء أسرة ابن تيمية التي جاءت من حران في شمال سورية . وقد ظهر في بني قدامة عدد من العلماء والدارسين الذين كانت خدماتهم العلمية جمع الفقه ووضع المصنفات الموسوعية فيه . وأسرة ابن تيمية (تو ٧٢٨/١٣٢٨) الذي لعله كان أكبر فقيه في أيامه ، فهو يمثل الفئة الثانية ، بعد أئمة السنة الأربعة الأوائل ، التي يعود إليها الفضل في إعادة النشاط الى الدروس الاسلامية الشرعية ، وتصنيف بعض ما سبق للفقهاء أن قدموه من آراء هامة ، وتطبيق المنطق الحديث على بعض القضايا التي لم تكن قد خطرت لأسلافهم من قبل . وقد يكون في الإشارة الى ابن تيمية وصحبه على أنهم مصلحون بعض المبالغة، ولكن أثرهم ، وخاصة أثر ابن تيمية نفسه ، يمكن ملاحظته في آراء المصلحين من المسلمين حتى يوم الناس هذا .

وستتناول التصوف بالحديث أولاً ثم نعود الى العلماء الاعلام . ولعله من المناسب أن نولي الامام الغزالي ملاحظة هنا ، لأنه هو الذي أعاد التصوف الى حظيرة الاسلام السني ، ولو أن ذلك

لم يمنع من قيام صوفيين كانت لهم شطحات تخالف ما توصل اليه الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م .

وقد فصل الغزالي موقفه من التصوف في كتابه (المنقذ من الضلال) ، ذلك انه قد درس أقوال الحكماء والفلاسفة وغيرهم من أهل الفكر ، ثم انتهى الأمر به أن أقبل على طريق الصوفية وخبر أمورهما علماً وعملاً ، وأخيراً لما أحس بعمجه ، على ما يقول : « ثم لما أحسست بعمجي وسقط بالكلية اختياري ؛ التجأت الى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له . فأجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه . وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب . »

وقد ترتب على هذه النقلة أن أوجد الغزالي « للمواقف الباطنية الداخلية مكاناً في مجال الاسلام الرسمي ، فكان جنباً الى جنب مع الشريعة والكلام » . الا أن الغزالي جعل التصوف سنياً ، لأن ما قبله من التصوف لم يكن التصوف المتطرف . وقد ارتأى ج. أربري أنه منذ أيام الغزالي أصبح بإمكان نوع هادئ من التصوف أن يحتل مكاناً بين العلوم الاسلامية . الا أن هذا القول يقابله استثناءات متعددة ، كابن تيمية ، عالم دمشق في ذلك العصر ، الذي كان شديد الحملة على التصوف . ولنا الى هذا الموضوع عودة .

كان التصوف الاسلامي ، في القرن السابع (الثالث عشر) ، قد كون ثيوصوفيته الخاصة المبنية على أساس فكرة الكلمة ، والتي أصبحت فيما بعد فكرة الحقيقة المحمدية . وقد كان لصوفيين كبيرين الفضل في نشرها وهما : ابن الفارض (المتوفى في القاهرة سنة ٦٣٣ / ١٢٣٥) وابن عربي (المتوفى في دمشق سنة ٦٣٨ / ١٢٤٠) . وكانت دمشق بين القرنين السابع (الثالث عشر) والتاسع (الخامس عشر) مركزاً هاماً لناحيتي التفكير الاسلامي : السنة والشريعة من جهة والتصوف من جهة أخرى ، وكانت كفة الناحية الأولى أرجح في غالب الأحيان .

وقد كانت ثمة عوامل كثيرة أدت الى ذلك ، منها النظام الجديد الذي ظهر في هذه الرقعة من العالم الاسلامي . لكن يجب أن نذكر الآن أن خطر الغزو المغولي ، الذي تحقق لما احتل هؤلاء بغداد ، حمل كثيرين من العلماء على الهجرة من العاصمة العباسية متجهين غرباً ، وكانت دمشق المكان الطبيعي الذي يلقون عصا التسيار فيه . كما أن الرعاية التي كان آل زنكي والأيوبيون وبعض سلاطين المماليك يسبقونها على العلماء ، جذبت كثيرين منهم فانتقلوا من شمال العراق الى دمشق . فأسرة ابن تيمية انتقلت الى دمشق وعالم المستقبل كان لا يزال طفلاً ، لكن أباه وجدته كانا من العلماء المرموقين . ويبدو أن القاهرة لم تجذب أهل الفكر دوماً في تلك العصور .

أما دمشق فكانت ذات جاذبية خاصة . عن ذلك فان عدداً من العلماء هجر فلسطين ، وهي تحت حكم الصليبيين ، الى دمشق مثل بني قدامة ، الذين أنشأوا الصالحية . ومع أن بغداد ظلت مركزاً للمعلم ، فان دمشق سبقتها .

قد يبلغ عدد سكان دمشق ، على ما يقال ، نحو مئة ألف نسمة ، والمدينة غنية تجارية وهي ، بعد القاهرة ، أهم مدينة في دولة السلطان . يمتدحولها الى الشمال والجنوب والشرق سهل متسع ، ويرتفع غربها جبل عال وقد قامت الضواحي عند أقدامه . يخترقها نهر تقسمته قني متعددة .

والمدينة وحدها يدور بها سور بديع ، لأن الضواحي أوسع من المدينة . « ولم تقع عيناي على حداثك أوسع ولا على فواكه أجود ، ولا على مياه أغزر من هذا الذي شاهدته هناك . فالماء هناك غزير الى حد أنه قلما يعثر على بيت ليس فيه نافورة . وحاكم المدينة نائب السلطنة لا يعلو عليه ، في مصر وسورية ، سوى السلطان . ولكن بسبب الثورات التي قام بها بعض الحكام فان السلطان يحاول أن يضيق على الحكام حيلة وحذراً » (٢) .

٣ - التربية والتعليم :

تتميز الفترة التي نتحدث عنها ، من حيث الاهتمام بالتربية والتعليم ، بأمور مهمة يجب أن يضمها الواحد منا نصب عينيه عندما يتحدث عن الحياة العلمية .

أولاً : كانت الدولة تشرف على التعليم العالي . وكان هدفها حماية نفسها ، وكان هذا هو الغرض الذي قبل علماء الدين والمفكرون الاضطلاع به . فلم يكن لحرية الفكر مكان في نظام التعليم في تلك الفترة ، بل انه لم يكن لها مجال في الحياة الفكرية عامة . ويروي أبو شامة أن صلاح الدين لم يكن يحب الفلاسفة أو أولئك الذين كانوا يخالفون المتبع المألوف ، حتى انه أمر بقتل السهروردي (المقتول) . وقد كان هذا سابقة خطرة استنتها هذا الرجل الذي كان ينظر اليه خلفاؤه بعين الاكبار (٣) .

ثانياً : كانت التربية أساسها فهم النظام الذي بذل العلماء جهداً في اقامته ومن ثم فقد ضاقت حلقات المتعلمين واقتصرت موضوعات التعليم : ويلاحظ الباحث أن الكثير من كتب العقائد لم تكن أكثر من شروح وتفسير لكتاب واحد أو ديول له . ومن حيث أن المجتمع الاسلامي لم يتلق ، في القرن السابع (الثالث عشر) أو بعده ، تيارات فكرية من الخارج ، فان الحياة الفكرية لم تعرف الحوافز أو البواعث التي تحملها على الانطلاق . ذلك أن التوازن الداخلي القائم وجد في الفقه المعاصر له ما يلزمه لسد حاجاته . وكان لا بد من ضغط خارجي لاحداث رد فعل يؤدي الى تبديل الوضع ، ومثل هذا الضغط لم يشهده العصر المملوكي (٤) .

ثالثاً : كان ثمة شعور عام بأن العمل في حقل الفقه هو العمل العلمي الأصيل . ولعل من أطرف ما وصلنا مما يدل على هذا الأمر أن ياقوت لما وضع مؤلفه الثمين « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب » اعتذر عن ذلك في مقدمته بقوله :

« واني لجد عالم ببغيض يندد ويزري عليّ ، ويقبل بوجه اللائمة اليّ ؛ ممن قد أشرب الجهل قلبه ، واستمصى على كرم السجية لبه ، يزعم أن الاشتغال بأمر الدين أهم ، ونفعه في الدنيا والآخرة أعم . أما علم أن النفوس مختلفة الطبائع ، متلونة النزائع ؛ ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحد لضاع باقيه ، ودرس الذي يليه . وإن الله جلّ وعزّ جعل لكل علم من يحفظ جملته ، وينظم جوهرته ؛ والمرء ميسر لما خلق . ولست أنكر أنني لو لزمتم مسجدي ومصلاي ، واشتغلت بما يعود بماقبة دنيائي في أخراي أولى ، وبطريق السلامة في الآخرة أخرى ، ولكن طلب الأفضل مفقود ، واعتماد الأخرى غير موجود ، وحسبك بالمرء فضلاً أن لا يأتي محظوراً ، ولا يسلك طريقاً وعيراً » (٥) .

رابعاً : لعله كان من الطبيعي ، والمصر هو الزمن الذي نعرف ، أن ينصرف الناس الى الفقه . فقد أثر القول بأن العلماء هم حماة الشريعة، هذه النظرة الاسلامية التقليدية اليهم . وفي الفترة التي نتحدث عنها كان العلماء أصحاب نفوذ كبير . فقد كانوا يحتلون الوظائف الدينية: فمنهم القاضي والمحاسب والمفتي والمدرس والامام والخطيب والقارئ ، وبذلك استطاعوا السيطرة على التعليم، وكان اليهم النظر في القضاء ، واليهم تعود الفتوى . وكان ثمة عدد كبير من الوظائف الدينية وقفاً عليهم . فكتب الانشاء ونظائر المؤسسات المختلفة، كالبيمارستانات والجيش ، كانوا من العلماء . والادب الرسمي الذي تصدر الينا من تلك الفترة مطبوع بطابعهم (٦) .

خامساً : كان للصدام بين أهل المنطقة والصليبيين أثر كبير في ازدهار الشعر العربي . فقد زودت انتصارات نورالدين وصلاح الدين الشعراء بموضوعات لقصائدهم ، ولم يقصروا قط في التفني بأعمال الأمراء الكبار . فابن عنين وابن الساعاتي امتدحا الأيوبيين مع أن الأول ذاق ألم النفي من دمشق ، وقضى مدة في اليمن - لكن في بلاط واحد من الأيوبيين .

وشعراء الفترة - أي في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) - الذين يمكن عددهم بين شعراء سورية كثر : فثمة ثلاثة وعشرون منهم . لكن نتاجهم الأدبي لا يبلغ مبلغ النتاج الشعري العربي القديم من حيث نوعه . ولعل ابن نباتة أذيعهم صيتاً . ولد هذا الشاعر في ميارفاقين سنة ١٢٨٧/٦٨٦ وانتقل الى دمشق سنة ١٣١٦/٧١٦ ، لكنه رحل أخيراً الى القاهرة وتوفي فيها سنة ١٣٦٦/٧٦٧ . وفي ديوانه الكثير من شعر المديح ، ومن هذه القصائد ثماني عشرة تبدأ بالطريقة التقليدية من تذكر الأحبة والمراجع . وقد نظم ابن نباتة الموشح الذي يزعم البعض أن ابن عربي نقله الى المشرق من الأندلس ، كما أنه نظم الزجل ، وفي ديوانه نموذج من ذلك (٧) .

٤ - ابن عربي :

نود أن نتوقف قليلاً عند ابن عربي أولاً لأنه من كبار أهل التصوف في عصره ، وثانياً لأنه قضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته في دمشق، حيث وضع جزءاً كبيراً من خير مصنفاته .

ولد ابن عربي في مرسية من أعمال الأندلس سنة ١١٦٥/٥٦٠ وتلقى علوم الحديث والفقه في لشبونة واشبيلية وسبتة وأطال التجوال في شمالي افريقية . ومع أنه كان قد تعرف الى الصوفية من قبل ، فإنه انضم الى المتصوفة في تونس ، ويبدو أن هذا الاتجاه الجديد في حياته هو الذي حمله على الاتجاه شرقاً إذ أن عصر الموحدين لم يكن يتقبل مثل الآراء التي كان ابن عربي يقول بها . فضلاً عن أنه ، مثل غيره من أهل الورع من المسلمين ، رغب في أداء فريضة الحج . وقد كان بلغ الثامنة والثلاثين من عمره لما بدأ رحلته الى المشرق .

ولم تكن اقامته في مصر هينة ، فقد هدد في حياته غير مرة ، لكن مكة راقته وطابت له صحبة أهلها والواردين عليها من الحجاج ، فأقام هناك ثماني سنوات عكف أثناءها على التأليف والتدريس . وقد تم له أثناءها اقامة مذهبه التألمي . وقد زار فيما بعد بغداد التي أعجبت له لكنه لم يبق فيها طويلاً - ولعله أحس بالأخطار المحدقة بالعاصمة العباسية من الشرق . وبعد تجوال قصير في أسية الصغرى لقي عصا الترحال في دمشق ، وفيها توفي سنة ١٢٤٠/٦٣٨ .

حظي ابن عربي في دمشق بكل ما يمكن أن يطمع فيه من لقاء طيب وعيش رغيد ورعاية أولي الأمر ، وكان في ذلك خير له ولنا . وكان بين الذين أفاءوا عليه الرعاية ابن الزكي قاضي القضاة ، الذي كان يقوم على خدمة الصوفي الكبير بنفسه . وكان جو دمشق الحرّ نسبياً ، إذا قورن بالقاهرة والغرب الاسلامي ، مما راق ابن عربي فحمله على العمل الفكري الجدي - إذ انه أتمّ - وهو في دمشق « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » .

وقد خلّف لنا ابن عربي عدداً ضخماً من المؤلفات تقدر بين ٤٠٠ و ٧٠٠ ، وقد سلم ما يربو على المائتين . لا شك أن بعضها يتألف من بضع أوراق ، لكن الكثير منها يتكون من مجلدات عديدة ، مثل الفتوحات والفصوص ، ولم يكن ابن عربي كاتباً فحسب ، ولكنه كان شاعراً على نحو ما نعرف من شعره الذي رواه صاحب نفع الطبيب .

جمع ابن عربي في اطار تأملاته الجامع علوم الاسلام ، ولم تكن معرفته الوثيقة مقتصرة على ما وضعه الفقهاء والفلاسفة السنيون والمتصوفة القدماء والمحدثون فحسب ، بل كان مطلعاً على ما عند المخالفين لهم مثل المعتزلة والقرامطة والاسماعيليين . ومذهبه ، على ما فيه من اتساع وتنوع ، يتكشف عما عرفته مصادره جمعاء من تأملات وتعايير . ومن ثم فإن الاشارات الغامضة تزداد تعقيداً بسبب الصعوبة التي تواجهها باستمرار ، وهي الصعوبة الناشئة عن استعمال التعابير الفنية المتناقضة لابن عربي ، فيما صنف « الفتوحات المكية » وهو مجليات هذا الرجل وتفسيره للكون والعقيدة والروح وشؤون الحياة بمجملها .

وقد يصعب علينا تعيين مذهب ابن عربي وبسبب هذا الذي يبدو لنا متناقضاً ، ولعل مثل هذا الموقف سببه أننا نحن نحكم على الرجل من الخارج ، فنرى الخلافات والمتناقضات . أما هو فقد كانت آراؤه نتيجة تمازج وتناغم داخليين .

ويبدو أن ابن عربي أحس بمواقف الآخرين منه فوضع كتابه « الأجوبة اللائقة عن الأسئلة الفائقة » ، وقد تصور فيه نفسه يجيب سائلاً اياه عن القضايا التي تعترضه .

وعلى كل فانتنا نضع امام الزملاء ما يصح أن يسمى « بعض آراء ابن عربي » راجين ألا يحسبها أحد أنها خلاصة لمذهبه :

- ١ - الله هو الوجود الحق وهو مصدر كل الموجودات . وفي الله وحده يتّحد الوجود والكيان .
- ٢ - الكون له وجود نسبي إما واقعي أو تصوري . وهو في الوقت ذاته وجود دائم وعدم موقت . فالوجود الدائم هو في علم الله ، أما العدم الموقت فهو خارجي بالنسبة لله .
- ٣ - ان الله منزّه ومشبه ، ذلك بأن التنزيه والتشبيه مظهران أساسيان للحق على ما يتركه الانسان ، فالحق الذي يقوم على التنزيه هو الخلق الذي يقوم على التشبيه ، مع أن الخالق يتميز عن المخلوق .
- ٤ - ان الوجود ، بعيداً عن الله يقع بإرادة الله ، وهو خاضع للنواميس المتعلقة بالأشياء الكائنة : ويتم ذلك بواسطة الأسماء الحسنی أو الآراء الكلية .

٥ - كانت الأشياء في العالم الظاهري ، قبل أن تصبح موجودات ، قائمة في العقل الالهي كإعيان ثابتة ، ومن ثم فقد كانت شيئاً واحداً مع الكيان والوعي الإلهيين .

٦ - ليس ثمة شيء اسمه اتحاد بالله ، بمعنى أن يكون المرء واحداً مع الله ، ولكن هناك تحقيق للكيان الواقعي وهو أن الصوفي واحد مع الله .

٧ - أن الأصل الخلاق المحيي العاقل في الكون أو العقل الأول هو الحقيقة المحمدية المسماة أيضاً حقيقة الحقائق . هذا الأصل يظهر على أو في صورة الإنسان الكامل .

٨ - كل نبي هو حقيقة الله ، والحقيقة هي محمد سيد الأنبياء . وهذه الحقائق جميعها تتقمصها الحقيقة المحمدية .

٩ - الإنسان الكامل هو مصغر الحقيقة . أنه العالم الأصغر الذي يعكس الصفات الكاملة للعالم الأكبر جميعها . وكما أن الحقيقة المحمدية كانت المبدأ الخلاق في الكون ، فإن الإنسان الكامل هو علة الكون لأنه رغبة الله في أن يعلن . ذلك بأن الإنسان الكامل وحده هو الذي يعرف الله ويجب الله ويحبه الله . فقد صنع العالم من أجل الإنسان فقط (٨) .

ويمكن تقصي المدى الذي تأثر فيه المتصوفة بابن عربي في أكثر من اتجاه واحد . فحتى أولئك الذين لم يقبلوا ، أو تظاهروا بأنهم لم يقبلوا ، نظرتهم بألوهية الكون كثيراً ما عبوا من معينه وخاصة آراءه في الحب ، وحتى القاهرة ، التي أقضت مضاجعه أثناء إقامته فيها ، وجدت فما بعد الكثير عنده ، ونجد أنه في نهاية القرن السابع (الثالث عشر) أصبح جماعة من المتصوفة في القاهرة من أشد المؤيدين لآرائه . وحتى العلماء حفزهم ابن عربي على العمل ، لأنهم انصرفوا إلى نقده ، وما كان ذلك بالأمر اليسير ، في تقييم آرائه بسبب تنوع ما مرّ به من التجارب الروحية والتأملات وعمقها .

٥ - ابن تيمية :

العلوم الشرعية هي التي كانت طلبية أهل العلم في العصر الذي نتحدث عنه . ونحن نعتزم أن نمثل على هؤلاء بالحديث عن ابن تيمية ، لكننا نود أن نشير إلى عالم كبير سبقه هو الموفق ، الذي رافق أسرته بني قدامة في هجرتها من فلسطين (الواقعة تحت الاحتلال الأجنبي) وكان صبيّاً . وكان أبوه أول معلمه ، ثم أخذ العلم عن بعض علماء دمشق ، ورحل بعد ذلك إلى بغداد والموصل ومكة حيث لقي العلماء وأخذ عنهم ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره لما استقر في دمشق نهائياً ، وانصرف إلى التعليم والتأليف حتى وفاته سنة ١٢٢٣/٦٢٠ . وكان عدد كبير من الطلبة يحضر دروسه ، بينهم جماعة بلغوا من العلم درجات عالية . كان الموفق حنبلياً واشتهر بالفقه ، وخلف لنا « المغني » وهو كتاب في الفقه في عشرة مجلدات . وميزة الكتاب هو أن مؤلفه كان يقارن فيه بين نظرة الحنابلة وآراء غيرهم من أهل السنة ، ومن ثم فالقارئ يجد فيه الفقه المقارن . وقد قيل عن الموفق أنه كاد أن يبلغ مرتبة الاجتهاد .

وابن تيمية مثل حسن لتبيين أثر العالم المتين الخلق في شؤون الدولة والمجتمع ، على ما يتضح من بضعة حوادث منتزعة من حياته . لما رأى الخطر المغولي المحدث بالبلد سنة ١٢٩٨/٦٩٧ ، تحدث

الى الناس عن شؤون الجهاد ، فكان حديثه أوقع في النفوس من أوامر السلطان . ولما احتل المغول دمشق بقيادة قازان ، كان ابن تيمية الذي حضر أرجواش ، نائب القلعة ، على وجوب الامتناع عن تسليمها ، وقد ذهب ابن تيمية الى النيك ، بصحبة نفر من أعيان دمشق ، للقاء قازان والحصول على أمان لأهل المدينة . وبعد رحيل جيش قازان من دمشق طاف ابن تيمية وأتباعه على حوانيت الخمور يكسرون آنية الخمر ويهرقون محتوياتها على الأرض ، ويعزرون أصحاب الحانات . وقد رافق ابن تيمية حملتين عسكريتين الى كسروان بلبنان في أوائل القرن الثامن (الرابع عشر) ، وقبل معركة شقحب (سنة ١٣٠٢/٧٠١) ذهب الى الجيش وتحدث الى الجند عن الوحدة والنصر واستوثق من أن الأمراء وغيرهم أقسموا على الاخلاص ، وأوضح لهم شرعية قتال المغول ، ولو أن هؤلاء كانوا مسلمين مثل أهل سورية .

قدما هذه الأمثلة لنوضح الدور الذي كان العلماء يقومون به في الحياة العامة . فاذا أضفنا الى ذلك نشاطاتهم الفكرية ، لا يتولانا العجب اذ انحن وجدنا أن حظهم في ارشاد القوم وتوجيه قضاياء المختلفة كان كبيراً .

وقد كانت دمشق في أيام المماليك تمجج بالعلماء ، فقد هاجروا اليها من الجزيرة وبغداد وفلسطين ، وتقبلتهم دمشق مشجعة وأفادت عليهم من خيراتها وأمنها ، ومنحتهم الفرصة لينموا اهتمامهم العلمي .

وتميز ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨) بأنه ارتفع الى مستوى القضايا المطروحة يومها وعالجها بمعرفة وصرامة وواجهها مواجهة المعية . وحياة ابن تيمية بالذات نموذج يحتذى في مجابهته للصعاب متى اقتنع بالحق في مسألة ما .

كان أحمد ابن تيمية قد بلغ السابعة من عمره لما رحلت أسرته من حرّان في الجزيرة الى دمشق ، خشية تكرار الهجمات المغولية . وقد أصبحت دمشق في القرن السادس (الثاني عشر) مركزاً للفقه الحنبلي ، الأمر الذي تقوى بعد سقوط بغداد سنة ١٢٥٨/٦٥٦ ، ولما كانت أسرة أحمد حنبلية ، فقد أتبع له من أول الأمر ، أن يأخذ العلم عن خير المدرسين الحنابلة في تلك الفترة ، فالمدارس الحنبلية كانت قد دربت فقهاء ومتكلمين ومفسرين ومحدثين يشار اليهم بالبنان ، وكان علماء الحنابلة يولون الخطب في المساجد والمدارس والزوايا عناية كبيرة ، وكان ابن تيمية ينمو مع هذه الأمور كلها كأنه جزء منها ، ولما كان في الثانية والعشرين من عمره خلف أباه ، وكان قد توفي في السنة السابقة ، في التدريس ، وكان هذا اعترافاً بمقدرته ، وذاعت شهرة دروسه لا بين السنة فحسب ، ولكن بين الشيعة الذين حضروها .

وكان العصر الذي عاش فيه يسيطر عليه المذهب الأشعري ومسحة من التصوف مع استعداد تام لقبول النظرة التقليدية في الشؤون العامة ، وكان ابن تيمية خصماً لهذه جميعها ، وقد أثار عليها منذ أول الأمر ، حرباً عنواناً ، وهذا هو الذي جملة يعتبر « مصلحاً » .

وقد قام بدور فعال في حياة مدينته وجماعته ، وأثارت « قسوته » في مهاجمة خصومه كثيراً من ردود الفعل العنيفة ، فاتهمه هؤلاء بالعناد وطلبوا أن تنزل به العقوبة ، ومن ثم فقد صرف الرجل

سنوات من حياته في سجون القاهرة ودمشق ، حتى ان السنوات الأخيرة من حياته قضاها في قلعة دمشق وتوفي فيها .

لم يكن ابن تيمية عالماً يكتفي بالتعليم والتصنيف ، بل كان أيضاً ، مثل عدد كبير من الحنابلة عبر التاريخ ، متفاعلاً مع بيئته ، فقد أخذ على عاتقه أن يتأكد من أن الناس ، كبيرهم قبل صغيرهم ، كانوا يحافظون على الآداب الإسلامية في تصرفهم . هذا كان من واجبات المحتسب ، لكن ابن تيمية كان (بتوظيفه نفسه بنفسه) محتسباً فعلاً نشيطاً .

وخلف ابن تيمية عدداً كبيراً جداً من المصنفات التي تعالج قضايا مختلفة ، وليس من الممكن أن نتحدث عن كتبه جميعها في هذه العجالة ، لكننا نرى لزماً علينا أن نضع بين أيدي القارئ بضعة من آرائه ومواقفه الأكثر أهمية .

فقد بحث في رسالته الواسطية ، وفي غيرها ، العقيدة الإسلامية التي كان يرى أنها تأتد من الأشعرية والتصوف والتقليد ، فقد قبل بعض المسلمين القول بأن الله ذو صفات جثمانية ، بانين ذلك على تفاسير مجازية لبعض آيات جاءت في القرآن ، وقد عاد ابن تيمية ، ودعا الناس الى أن يعودوا مثله ، الى القرآن الكريم والسنة النبوية لفهم العقيدة فهماً عميقاً دقيقاً صحيحاً أصيلاً ، تاركين غير ذلك من الوسائل والآراء التي تسربت الى الإسلام من الخارج كالتمثيل والتجسد والتشبيه ، ولم يكن ليقبل بما جاء به المتصوفة من تطرف في الرأي اذ قالوا بالحلول والاتحاد ، فمثل هذا القول كان ، في نظره ، شركاً لا يقبله الإسلام ، ومن ثم كان هجومه العنيف على ابن عربي . ومع أن ابن تيمية لم يهاجم المتصوف جملة ، الا أن المتصوفة نقموا عليه موقفه منهم ورفعوا أمره الى السلطان في القاهرة ، ونجحوا في أن يزج به في السجن .

وكان ابن تيمية حربياً على المقلدين . ذلك أن المؤلف في ذلك الوقت هو أن الفقهاء كانوا يتقيدون ، في بحثهم أمور الشريعة ، بما جاء به أئمة الستة الأربعة ، أي أنهم لم يكونوا يبدون رأياً خاصاً قط . ذلك أن باب الاجتهاد قد أقفل قبل نحو خمسة قرون . ومع أن الحنابلة لم يقبلوا بهذا تماماً ، الا أنهم راعوا هذا التقليد في بعض نواحيه . وكان ابن تيمية يرى أن الاجتهاد أمر أساسي للجماعة الإسلامية واستمراره لازم . وقد أوضح موقفه هذا في عدد كبير من الفتاوى ، التي أظهر فيها أصالة في الرأي والأسلوب مقتصرأ في جدله على الاستشهاد بالقرآن والسنة ، والرجوع الى الاجماع على ما عرف في أيام الصحابة .

كان الفقهاء يعتمدون الاجماع والقياس والرأي أحياناً في تفسيرهم للأمور الشرعية . وقد تحدى ابن تيمية هذه كلها وقال بأن اجماع العلماء يمكن إعادة النظر فيه ، ومن ثم فإن آراء أئمة المذاهب السنية الأربعة يجب أن ينظر فيها من جديد متى سنحت فرصة لذلك ، على أن يعتمد على الكتاب والسنة .

ولم يكن ابن تيمية وحيداً في هذا الموقف ، بل ان عبدالسلام وابن قيم الجوزية لم يريا قبول آراء الأئمة الأربعة قبولاً مطلقاً . وقد حدد ابن عبدالسلام موقفه اذ لم يسمح للجمهور بالاجتهاد ، بل قصره على أهل العلم . وكان ابن قيم الجوزية يقول بأن الفقه يجب أن يكون عملية نامية متطورة كي تسترشد به الدولة للوصول الى الوسائل التي تعينها على القيام بمصلحة الأمة (٩) .

٦ - التاريخ والموسوعات :

وكان التاريخ موضع اهتمام وعناية في هذه الفترة ، وقد صنفت فيه كتب قيمة . وقد كان الاخباريون الأوائل في الاسلام مفلقين على أنفسهم بعض الشيء ، وكان الاسلام وتاريخه هو كل ما يهمهم ، وقلّما عنوا بمن سبقهم من الأقوام أو حتى بمعاصريهم من الأمم الأخرى باستثناء الطبري وابن قتيبة وابن الأثير . أما مؤرخو العصر المملوكي فقد كانوا منفتحين . كانت كتاباتهم عن الاسلام والبلاد الاسلامية الا أنهم كانوا قد ارتبطوا بجماعات أخرى في الشرق والغرب وكونوا معها علاقات وثيقة وتعاملوا معها بشكل واسع ؛ وقد جاء مؤرخو المماليك بعد أن كان عدد كبير من الجغرافيين والرحالين قد درسوا أجزاء العالم وكتبوا عنها . فلم يكن بإمكان هؤلاء المؤرخين أن يتجاهلوا الأقوام الأخرى حتى ولو أرادوا ذلك . فضلاً عن أن بعضهم بذل جهوداً لتدوين تاريخ الحروب الصليبية - أكبر نزاع مسلح بين المسيحية والاسلام، ولسنا نغنى الآن بموقف المؤرخين ، ولكن المهم أنهم تناولوا الموضوع بالكتابة . كانت آفاقهم أوسع ، والذي نراه هو أن مؤرخي القرن الثامن (الرابع عشر) هم الذين أرشدونا الى كتابة التاريخ : لقد كان طليعتهم ابن خلدون ، وقد قامت دمشق ومؤرخوها بدور كبير في هذا الاتجاه .

وقد ازدهرت في الفترة التي نتحدث عنها أيضاً المؤلفات الموسوعية التي شملت فنون العلم والمعرفة على أنواعها : ففي الفقه وضع الموقّق « المغني » . وفي التاريخ ظهر أمثال ابن الفرات والذهبي ، وفي الموسوعة بالذات صنف ابن فضل الله العمري كتاب « مسالك الأبصار » ، وهذا الكتاب ، وسنعود اليه فيما بعد ، جاء في عشرين جزءاً فيه الجغرافية والتاريخ السياسية والأدب على نحو ما عرفها العصر . فضلاً عن أنه كان ، في زمنه ، دليلاً رسمياً للذين يعملون في وظائف الدولة .

ولعله من الأفضل لتوضيح نواحي الحياة الفكرية في ذلك الوقت أن نضع أمام القارئ تراجم مقتضبة جداً لبعض المؤرخين والموسوعيين الذين كانت حياتهم نموذجاً للعصر ، إذ إن ذلك من شأنه أن يدخلنا الى الجو الذي عاش فيه هؤلاء الناس .

من هؤلاء الذهبي المؤرخ (تو ٧٤٩/١٣٤٩) الذي صنف « تاريخ الاسلام » في سبعين قسماً خص كل قسم منه بعقد من السنين . وقد كان واسع المعرفة ضليعاً في علمه بالمصادر حيث أن كتابه يمكن اعتباره من نوع الموسوعات التاريخية . وقد خلفه في كتابة التاريخ ابن كثير صاحب « البداية والنهاية » الذي وضعه في أربعة عشر جزءاً . وقد لجأ الاثنان - الذهبي وابن كثير - الى تلخيص من سبقهما في كتابة تاريخ القرون الأولى ، لكنهما كانا يحسان ، وهما يدونان أخبار زمانهما ، أنهما يؤرخان لفترة فيها الكثير من الحركة والنشاط ، ومن ثم فقد انصرفا الى عملهما باهتمام ، فخلفا لنا ثروة تاريخية لا مثيل لها ، وخاصة ابن كثير الذي يرسم لنا صورة حية للأحداث والمجريات حيث نستطيع مراقبته يوماً فيوماً .

ويعتبر ابن فضل الله العمري (تو ٧٤٩/١٣٤٨) مؤلف « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » موسوعي دمشق في عصر المماليك ، فقد كان أبوه وجده من قبل موظفين في الدولة المملوكية ، وكانا متصلين بتنظيم البريد خاصة ، وقد ولد العمري في دمشق حيث سمع العربية والفقه وتولى منصب

القضاء فيها . وأخيراً تأسى خطوات والده وجده فتوظف في ديوان الانشاء ، وهذا ما حفزه على وضع مؤلفه الضخم «المسالك» ، والكتاب فيه بحث عن جغرافية الأرض ، الا أنه عندما يتكلم عن الجغرافية السياسية فإنه يقتصر بحشه على بلاد الاسلام (وهو يأمل أن يتحدث عن بلاد الكفار في مناسبة تالية) . على أن الاكتفاء بهذا القول عن الكتاب فيه اجحاف ، ذك بأن المؤلف يزودنا بالأخبار التاريخية المعاصرة وبالمعلومات المتعلقة بالادارة والعلاقة بين السلطان ونوابه وأمرائه . ويسهب في تبين الأمور المتعلقة بالضرائب وموارد الدولة والمكافآت وحق الانتفاع بالأرض وما الى ذلك . ووصفه للمدن، وخاصة القرية ، وافٍ ودقيق . وأسلوبه يتفق مع روح العصر ، الا أنه لا يضحى بالدقة في سبيل زخرف القول . وفي الكتاب عدد كبير من المراسيم والأوامر السلطانية التي صدرت في أوقات مختلفة ، وان لم يكن هو الكتاب الوحيد الذي يوردها . ولا سبيل الى فهم الادارة المملوكية الا بكتاب المسالك هذا .

وابن طولون الصالحي ولد في أواخر عصر المماليك وتوفي سنة ١٥٤٦/٩٥٣ ، لذلك لم يتمتع برعايتهم مدة طويلة ، اذ جاء موته بعد زوال امبراطوريتهم بنحو ثلاثة عقود من السنين . ومع ذلك فهو من أهل العصر لأنه ولد قبل الاحتلال العثماني (١٥١٦/٩٢٢) باثنتين وأربعين سنة . ولم تكن مؤلفات ابن طولون شيئاً مبتكراً ، الا أنه عالم من علماء تلك الفترة . فقد قرأ القرآن وسمع الحديث والفقه ودرس التصوف (وهو أمر غير مألوف الا اذا كان المقصود الرد على المتصوفة) واللغة والتاريخ والرياضيات والفلك والهندسة والطب . والكتب التي وضعها ، ويبلغ عددها سبعمائة ، شملت هذه الموضوعات جميعاً . كان ابن طولون نموذجاً لعالم العصر : كان ذكياً فتعلم كل شيء قرأه ، وقرأ كل شيء وقعت عينه عليه ، وكان قادراً على هضم المعرفة ، ومرت على الكتابة بيسر . لكن الذي لاحظته دارسو ابن طولون هو أن الرجل لم يَبْدُ بالقضايا المعاصرة له رأياً خاصاً ، فهل ان الرجل لم يع المشكلات التي كانت البلاد تعانيها ؟ على أن ابن طولون لم يكن الوحيد بين علماء عصر المماليك الذي لم تشغله القضايا العامة ما دام يستطيع أن يحقق حلمه أي التعلم والتدريس في الموضوعات المألوفة وعلى الطريقة التقليدية (١٠) .

٧ - المؤلفون والكتب :

تمكننا في مناسبات مختلفة من جمع أسماء المؤلفين الذين عرفتهم بلاد الشام ، وخاصة دمشق ، في عصر المماليك ، فتبين لنا نتاج حري بالدرس المفصل . أما الأسماء فقد حصلنا عليها (ولن نذكرها هنا مفصلة) من كتب الذيل في تاريخ الروضتين لأبي شامة وتاريخ أبي الفداء والبداية والنهاية لابن كثير والدرر الكامنة لابن حجر وفوات الوفيات للصفدي . وقد أسعفنا كتاب بروكلمان في تاريخ الأدب العربي كثيراً في الحصول على الأسماء وتيسير الرجوع الى المظان الأصلية . وهذه هي الخلاصة التي توصلنا اليها :

١٤	الأطباء والعلماء والفلكيون	٢٦	الفقهاء
٤	الموسوعيون	٢٣	المفسرون والمحدثون
٣	مؤلفون متفرقون	٥	المتصوفة
		٣٢	أهل النحو والأدب والشعر
١٣٥		٢٨	المؤرخون والجغرافيون

فأهل الأصناف الثلاثة الأولى ، أي الذين ألفتوا في الموضوعات الدينية ، وعددهم ٥٤ عالماً ، يكونون ٤٠٪ من مجموع العلماء .

وقد وضع هؤلاء المؤلفون ، بقدر ما تيسر لنا التفصيل والتصنيف من المصادر التي ذكرناها قبلاً ، ٩١٨ كتاباً (هي التي وصلتنا) وهي ، موزعة على الموضوعات ، تبدو على النحو التالي :

الفقه	٢٧١	التاريخ والجغرافية	١٢٣
التفسير والعقيدة والحديث	١٦٤	الطب والعلوم والفلك	٥٢
التصوف	١٥٨	الموسوعات	٤
اللغة والأدب والشعر	١٣٥	مؤلفات متفرقة	١١ (١١)

والكتب الموضوعة في الشؤون الدينية هي ٥٩٣ وتؤلف ٦٥٪ من مجموع ما ألف . ولعله من الخير أن نضيف الملاحظ التالية :

١ - من المناسب أن نتذكر أن عدداً كبيراً من المحدثين والمفسرين والقراء والأئمة اكتفوا بالتدريس ولم يؤلفوا كتباً .

٢ - نجد أن الكثير من الدواوين الشعرية يدخل في عداد الكتب الدينية ، إذا كان الموضوع ذكر الله ومدح الرسول (ﷺ) ومثالثها على ذلك : ديوان ابن نباتة (تو ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) الموسوم منتخب الهدية من المدائح النبوية ، والودائعي (تو ١٣٢٦/٢٧٦) في ديوان البدر الطالع ؛ وفي بدعيمة العميان للشاعر الضرير (تو ١٣٧٨/٧٨٠) .

٣ - ثمة عدد من الكتب الدينية يتكون من عدد من المجلدات ، مثل فتاوى ابن تيمية وتفسير ابن كثير .

٤ - وقد عرفت الفترة النزر من التأليف العلمي ، باستثناء كتب قليلة في الطب والفلك . وثمة كتابان في المنطق واثنان عشر كتاباً في الجغرافية وكتاب واحد عن الاستراتيجية والتعبئة . وقد اتبع الطب بسبب رعاية نورالدين وصلاح الدين وخلفائهما . فضلاً عن أن الطب كان ذا فائدة عملية ولم يكن له نصيب من التدخل في أمور السياسة . وعلى غرار ذلك كانت كتب الفلك وما إليه في الغالب تعنى بالناحية العلمية من هذه القضايا ، مثل التوقيت وعمل الأسطرلاب .

ونحسب أن هذا يتفق مع روح العصر من جهة ، ومع التطور الذي سبق ذلك في مسافات الحياة الفكرية الإسلامية .

فقد عرفت هذه الحياة ، في رأينا ، ثلاثة مساقات لا مساقين على نحو ما جرى عليه العرف . فهناك المساق الفقهي والمساق الفلسفي ومساق العلوم النفعية ، وهي تشمل الطب والهندسة والفلك من حيث أهميته التوقيتية . والاول كان سند الدولة وكانت الدولة سنده باستمرار . والثاني نما واتسع في فترة زمنية محدودة في القرنين الأولين أو الثلاثة الأول من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية . ولما وقع الخلاف بين المساق الأول (الفقهي) والمساق الثاني (الفلسفي) كان هذا الخاسر ، فانسحبت الفلسفة ، على الأقل منذ أيام الغزالي (تو ١١١١/٥٠٥) ، وظل للفقه سلطانه . أما العلوم النفعية فلم يقع بينها وأهلها وبين الفقه وأهله أي صدام حقيقي أو خلاف جذري ، فاستمرت تنتج طباً وصيدلة وهندسة في جميع العصور التي تلت ، ومنها الفترة التي نعني نحن بها الآن .

٨ - القضايا العامة :

والقضايا الشرعية والادارية والمسكزية والمدنية التي شغلت العلماء كانت كثيرة ، وكانت مجالاتها وأبعادها تختلف بين المنطقة والأخرى وبين العالم والعالم التالي ، ثم بين عقود وعقود من السنين .

وقد رأينا أن نتناول عدداً من هذه القضايا رغبة منا في الإشارة الى ما شغل الناس وملأ عليهم نفوسهم وضمايرهم في العصر المملوكي :

١ - كانت قضية الاجتهاد مما شغل علماء كثيرين ، ومن كبارهم بطبيعة الحال ، فنحن نجد أن ابن عبدالسلام في كتابه « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » وابن تيمية في فتاواه وابن قيم الجوزية في « الطرق الحكمية في السياسة الشرعية » تناولوا هذه القضية بالذات ، ويبدو أنهم لم يكونوا مرتاحين لأحكام الأئمة الأربعة . وقد استغرب ابن عبدالسلام كيف أن عالماً يرى ضعف حجة أمامه ثم يسمح لنفسه باتباعه (قواعد الأحكام ص ١٥٣) وابن تيمية أخرج أموراً كثيرة تعتبر اجتهاداً شخصياً ، منها قضية الطلاق ، وابن قيم الجوزية كان يقول بأن السياسة (أي الحكم) قد تتبع سبلاً تنتهي الى الخير العام ، وهي حرية بالاتباع ما دامت لا تتعارض مع الأصولين الاسلاميين - كتاب الله وأحاديث الرسول (ﷺ) .

٢ - كان من الطبيعي ، والعصر المملوكي كان زمن جهاد ضد الغزو الخارجي ، أن يكون لهذا الموضوع شأن كبير بين الفقهاء ، خاصة وأن خطر هجوم أوروبي جديد لم يكن بعيداً عن التصور ، بل يجب أن نذكر حملتين الواحدة على الاسكندرية والثانية على نيكوبوليس . وكانت بعض عناصر السكان تتهم بمساعدة الأوروبيين . وكانت الدولة تعتبر هؤلاء خونة ، ويجب أن يطالهم العقاب اما أفراداً أو جماعات . وقد هاجم المغول سورية وجوارها مرات عدة ، وكان القتال يتراوح بين النصر والخذلان بدرجات مختلفة . وقد وجد هناك من يعطف على المغول من أبناء البلاد . فهل يعتبر هؤلاء خونة ؟ وعلى أي أساس ؟

كانت هذه القضايا المتعلقة بحروب تلك الفترة موضوع بحث ونقاش . كان الأوروبيون مسيحيين لذلك كان في واقع الأمر يتوجب على الدولة أن تقوم بالجهاد ضدهم على يد السلطان . لكن المغول قد أسلموا . فهل كان القتال ضدهم عملاً مشروعاً ؟ لقد رأينا أن ابن تيمية قاد الحلة ضدهم بنفسه ، ولو لم يكن الرجل مقتنعاً بصواب رأيه لما قام بهذا العمل . وقد كان رأيه في الموضوع واضحاً كل الوضوح . كان المغول مسلمين ، ولكن تصرفهم الوحشي مع المسلمين في مدن العراق وشمال سورية وقراها وضدهم في مصاف المجرمين العاديين : ومن ثم فقد حق عليهم القتال . وكان أكثر من نصرهم من الشيعة ، ولم يكن ابن تيمية معجباً بهم . ولذلك فقد رافق حملة أرسلت للهجوم على معاقلهم في جبال سورية ولبنان (١٢) .

٣ - تقديس الأراضي المقدسة (فلسطين) : كان اهتمام الناس بالأراضي المقدسة من الموضوعات التي احتلت مكاناً مرموقاً في المناقشات الدينية في عصر المماليك . ونكتفي هنا بالإشارة الى الكتب الثلاثة التالية التي وضعت في هذه الفترة لتظهر مدى استئثار هذه القضية بتفكير العلماء ،

وهي : « ترغيب أهل الاسلام بسكنى الشام » لعز الدين ابن عبدالسلام الملقب بسلطان العلماء ، و « مثير الغرام في زيارة القدس والشام » لشهاب الدين المقدسي ، و « مثير الغرام في زيارة الخليل عام » للتدمري الخليلي .

والفكرة التي يتناولها الكتاب الأول ، وهو مثل لكتب كثيرة في الموضوع ، هو أن الشام (أي ديار الشام) - ودمشق خاصة - بلد مقدس بالنسبة للمسلمين وذلك بسبب الأحاديث النبوية المتعددة المتعلقة بها . وقد دفن عدد من الصحابة في سورية ، ومن ثم فإن البلاد تشغل مكانة هامة في الاسلام ، وأذن فإنه يتعين على المسلمين الدفاع عنها . والمثير الأول يضع النبرة على القدس ، بينما يهتم الثاني بالخليل .

ويبدو أن تقديس الأراضي المقدسة كان قد أصبح في القرن السابع (الثالث عشر) قوياً إلى حد أن ابن تيمية وجد أنه من المصلحة أن يفند مثل هذه الفكرة ، التي كان يعتبرها أمراً فاضحاً . لذلك فإنه صنف كتاباً سماه : « قاعدة في زيارة بيت المقدس » . وحججه وتفنيدته تتلخص فيما يلي :

- ١ - أن المسجد الأقصى يعتبر ثالث مسجد في الاسلام من حيث أهميته ، أما مسجد الخليل فلا يعتبر مساوياً له .
- ٢ - والمسجد لأقصى هو مكان لعبادة الله ، مثل أي مسجد آخر ، لكن زيارته لا تغني المرء عن الحج إلى مكة .
- ٣ - ليس ثمة حرم مرتبط بأي من مسجدي القدس أو الخليل ، مع أن لمسجد مكة حرماً خاصاً به مثل المدينة .
- ٤ - زيارة المسجد الأقصى أمر عادي ويمكن أن تنتم في أي وقت ولكن لا يمكن قط اعتبارها حجاً .
- ٥ - لا يمكن اعتبار زيارة لعسقلان وعكا وطرطوس زيارة دينية لأن هذه الأماكن هدمت بمساجدها . وقد جرب ابن تيمية ، بالإضافة إلى أمور أخرى ، أن يبين أن كثيراً من الأحاديث التي يقبلها الناس على أنها صحيحة ليست هي كذلك ، وإنما هي من وضع القصاص (١٣) .

٤ - علاقة الانسان بالله : كانت علاقة الانسان بالله من المسائل التي كثر القول فيها في ذلك العصر . وكان ثمة اتجاهان : الأول هو التفسير الصوفي ، وهو الذي يجذب إليه العدد الكبير من الأتباع ، والذي لفت نظر العلماء لما أخذ المتصوفة تنظيم أنفسهم طرقاً جديدة . وكان الاتجاه الآخر هو الاتجاه السني ، الذي كان يحتضنه الأشاعرة والمدارس الحنبلية الحديثة العهد ، والتي كانت تتطور بسرعة بين القرن السادس (الثاني عشر) والقرن الثامن (الرابع عشر) .

كان التفسير الصوفي يقول بالحلول والاتحاد ، وهما فكرتان نشأتا مع الوقت وتطورتا بتأثير عدد من المفكرين . وقد أضيف إليهما ، في القرن السابع (الثالث عشر) ، وحدة الوجود . وقد تشدد المتصوفة في اعتبار المعرفة طريقاً لإدراك الله . وكان الكثيرون منهم ، ان لم يكن كلهم ، مستعدين لقبول أساليب غريبة للعبادة ، أو التخلي عن بعض ما هو مفروض من العبادات : فقبلت الطرق الصوفية الذكر والسماع طريقاً للمعرفة . وقد كان الصوفي الأول في هذه الفترة ابن عربي ، لذلك لما أخذ ابن تيمية نفسه بمقاربة التصوف اتخذ ابن عربي هدفاً لحملاته .

أما الاتجاه السني فقد حافظ على مستوى رفيع في الأخلاق والتفكير ، ورفض قبول أي تجديد أو ترتيب قد ينتقص من صفاء العقيدة الأولى . وقد كان علماء السنة ، سواء في تفنيدهم للصوفية

أو في إعادة النظر في بعض الأمور المتعلقة بالاسلام ، نشيطين جداً • ولعل ابن تيمية ، على ما ذكرنا ، كان أكبر قادة الفكر السني (الحنبلي) في ذلك العصر •

كان ابن تيمية ومعاصروه يرون أن الاسلام هو الدين الحق ، ومن ثم فإنه كان يتعين على المسلم أن يؤمن بالله وبرسوله • والمسلم يرجع الى القرآن والسنة لتفهم العقيدة لأن جميع الأمور المتعلقة بالايمان والعمل موضحة فيهما بما لا يترك زيادة لمستزيد • والايمان الذي يضمن لمسلم النجاة هو الاعتقاد بالله وبرسوله • واصرار ابن تيمية على أن الايمان وحده لا تتجزأ أمر يلفت النظر ، إذ أن هذه النظرة قبلت العبادة على ما جاءت عليه في مصدرى الاسلام الأساسيين فقط • يضاف الى ذلك أن الانسان يجب أن يسلم أمره الى الله ، وأن تسليمه يجب أن يكون تاماً ، شأنه في ذلك شأن ايمانه •

كان الله يوحى الى الانسان بواسطة الرسل ، ومحمد هو خاتم الرسل • واذن فعلى الانسان ، عندما يطلب العون من الله ، أن يسأل النبي شفاعته ، لكن ابن تيمية عارض التردد على المزارات وزيارة قبور الأولياء على أساس أن مثل هذه الأماكن وأولئك الرجال لهم قوى خارقة ، أو أنهم يمنحون بركات خاصة أو أنهم يستطيعون أن يتوسطوا بين الانسان وخالقه ، وحمل على مثل هذه الزيارة حملات شعواء ، وبذل الكثير من الجهد ليظهر للناس أن الله لهم يهب مثل هذه القبور مكانة مميزة أو قوة خاصة (١٤) •

٥ - الفرد والامة : كانت الامة الاسلامية هي الامة في نظر ابن تيمية ، وكان التعاون بين أفراد الامة هو أساس العمل المشترك فكان يترتب على المسلم أن يعين الآخرين على فعل الخير وتجنب الشر واحقاق الحق • وكان ابن تيمية يعتبر الامة شيئاً عضوياً وان لها أهدافاً وغايات معروفة • وغرض الامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعنى هذا أن الامة كانت تحقق إرادة الله •

وكان على الامة ، رغبة منها في تحقيق غاياتها ، أن يكون لها تنظيم دولة هو الامامة التي يتوجب عليها ، وعلى من فيها من موظفين وهيئات ، أن تدعن لمبادئ الاسلام • ويتربط عليها أن يكون هدفها أيضاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويجب أن تكون دولة عادلة لأن الله لن يؤازر دولة ظالمة ، ولو أن هذه قد تكون دولة مكونة من مؤمنين • والدولة التي كان ابن تيمية يفكر فيها هي دولة دينية ، لكنه كان يريد لها ، على ما يرى هنري لاوست ، دولة واجبتها أن تتعاون مع الامة وتخدمها ، لا أن تكتفي بأن تقبل خضوعها فحسب • على أن الخضوع كان لازماً لتحقيق الهدف الذي وجدت الامة من أجله • وعلى الدولة واجب أدبي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للامة ، إذ يتوجب عليها أن تحقق الحق ، وتنشر الأمن وتؤكد من أن الناس قاموا بفروضهم الدينية • وعليها ، بالاعتماد على المحتسب ، أن تستوثق من صحة المعاملات وأن تحمي الناس من الغش والتدليس (١٥) •

أما من الناحية الاقتصادية فقد كان على الدولة أن تحمي الامة ضد الاحتكارات وتدليس التجار • ومراقبة الأسعار كانت جائزة عندما يكون المقصود منها مساعدة الناس في الحصول على حقهم - في أيام القحط والعوز • وقد قبل ابن تيمية أن تتدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية للمجتمع لضمان حاجاته فقط • واذن فقد كان جائزاً أن يكلف البعض القيام بأعمال تجارية أو زراعية أو في حالة الحرب على أن يكون ذلك لقاء تعويض ، وعلى أن لا يتأذى أحد بسببها •

ولم يكن ابن تيمية يجذب الاقتصاد الفردي ، لأن الفرد لم يكن السيد المطلق في تصرفه . فهو من الجهة الواحدة خاضع لتعاليم الاسلام ومن الجهة الثانية جزء من الأمة ، مرتبط بها .

٩ - الخاتمة :

لقد ترك علماء عصر الماليك أثراً لا في معاصريهم فحسب بل تعداهم الى الاجيال التي تلت . وفي هذا المجال يبدو اسم ابن تيمية في طليعة المصلحين في ذلك العصر ، وذلك بسبب نشاطه ودقة تفكيره وصفاء أسلوبه (بالنسبة الى الفقهاء وأهل الشرع) وصراحته . وقد كان أتباع ابن تيمية كثيرين ، ومن أبرزهم ابن قيم الجوزية (توفي سنة ١٣٥٠/٧٥١) . ومن تأثر بأراء ابن تيمية من غير الحنابلة نذكر الذهبي وابن كثير وابن حجر، وهم ثلاثة من كبار المؤرخين العلماء . وقد كان تأثير ابن تيمية في مصر كبيراً حتى في حياته .

ومن الجدير بالذكر أنه لما سمع بعض علماء بغداد ، العاصمة التي دمرها هولاكو قبل ذلك بسبعين سنة ، بأن ابن تيمية معرّض للسجن في قلعة دمشق كتبوا الى السلطان الناصر يرجونه في قضية شيخ الاسلام . وقد جاء في رسالتهم أنه لما بلغ المشاركة وأهل الولايات العراقية الشرقية بأن شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية مسجون ، حز ذلك في نفوسهم . ولما أدرك علماء تلك النواحي مدى المأساة كتبوا الى السلطان مؤيدين الشيخ في فتاواه ، مشيدين بعلمه وفضله ، مدافعين عن دينه وحرصه على نصيح الأمراء المسلمين بما يتوجب عليهم نحو الاسلام .

ولما فتح العثمانيون سورية ، ضعف شأن الحنابلة ومدارسهم ، لأن الأتراك كانوا حنفيين . وقد ظل ابن تيمية مدة طويلة منسياً في بلده . ولعل المتصوفة ، الذين مال العثمانيون اليهم (فقد بنى سليم ، فاتح سورية ، زاوية حول ضريح ابن عربي في دمشق) أسهموا في ذلك . الا أن بلاداً أخرى أخذت نفسها بالتعرف الى ابن تيمية ودرس آرائه وأتباعه . ففي أواسط القرن الثامن عشر قام محمد بن عبد الوهاب بدعوته في نجد ، وكانت أصلاً تسير على خطوات ابن تيمية . وبعد ذلك بقرن تقريباً قام السيد محمد بن علي السنوسي بحركته الإصلاحية في ليبيا - وأثر تعاليم ابن تيمية واضح في الدعوة السنوسية . وفي مطلع القرن الحالي أعلن السيد رشيد رضا ، صاحب المنار ، وأحد كبار السلفيين ، أنه من أتباع ابن تيمية .

وهكذا فقد وضع ابن تيمية الاطار الأول للإصلاح الاسلامي والاحياء الديني ، الأمر الذي قبله دعاة الإصلاح وجماعة الاحياء منذ ذلك اليوم .

□ الحواشي :

١ - نشطت الدراسات المتعلقة بالفترة المملوكية بحيث أنه يصعب احتواء المادة هنا . ولعل أنسب ما يمكن أن يقال هو أن ينظر الباحث المهتم فملاً بتفاصيل عن هذه الفترة في الموسوعة الاسلامية (EI²) الطبعة الجديدة ويتابع حكام الماليك فرداً فرداً . على أنه من المناسب أيضاً أن يتعرف الى ما كتبه الرحالون المسلمون والأفرنج على السواء . وقد جمعت أنا في كتابي :

Damascus under the Mamluks, Oklahoma, 1963.

خلاصة وافية لما دونه الرحالون الأجانب عن دمشق خاصة ، فليرجع اليه . ومن هؤلاء الذين تحدثنا عنهم هناك :

(a) Benjamin of Tudela, **Travels ...** ed. Wright (London 1848).

(b) Frescobaldi, Leonardo and others **Visit of the Holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in A.D. 1384** Jerusalem 1948).

Niccolo of Poggobonsi, **A Voyage Beyond the Seas**, Jerusalem 1945.

Ziadeh, Nicola **Urban Life in Syria under the Early Mamluks** (Beirut, 1953).

2 — Afifi, A. E. **The Mystical Philosophy of Mahyid Din Ibnul 'Arabi**, (Cambridge 1939).

Arberry, Arthur J. **Sufism**, (London, 1950).

• ابن تيمية ، تقي الدين : بغية المرقد (القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

• ابن تيمية ، تقي الدين : مجموعة الرسائل الكبرى (القاهرة ١٣٢٣) .

• ابن عربي ، محيي الدين : ترجمان الأشواق (بيروت ، صادر ١٩٦٣) .

• أبو الفدا ، اسماعيل بن علي : المختصر في أخبار البشر (استانبول ١٢٦٨ هـ) .

٣ — أنظر : ليونز وجاكسون صلاح الدين ، ترجمة : علي ماضي ، مراجعة : نقولا زيادة وفهمي سعد (بيروت ١٩٨٨) .

47— Makdisi, George **The Rise of Colleges**, (Edinburgh, 1981).

Nashabe, Hisham **Muslim Educational Institutions**, (Beirut, 1989).

• زيادة نقولا : العسبة والمحتسب في الاسلام (بيروت ١٩٦٣) .

8 — Afifi, ibid.

9 — Laoust, Henri : **Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taki-Din Ahmad B. Taymiyya** (Cairo, 1939).

• ابن تيمية ، تقي الدين : فتاوى (القاهرة ١٣٢٥ - ١٣٢٩ هـ) .

• ابن تيمية ، تقي الدين : كتاب السياسة الشرعية (القاهرة ١٣١٦ هـ) .

• ١٠ - زيادة ، نقولا : الجغرافية والرحلات عند العرب (ط ٢ ، بيروت ١٩٨٠) .

• زيادة ، نقولا : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (ط ٢ ، بيروت ١٩٨٦) .

11— Ziadeh, Nicola, **Urban** pp. 151-189.

• زيادة ، نقولا : دمشق ص ١٨٥ - ١٩٠ .

12— Ziadeh, Urban, pp. 179ff.

١٣ - ابن تيمية : القاعدة في زيارة بيت المقدس (JAOSL 1936) .

14— Ziadeh, Urban, pp. 179ff.

15— Ziadeh, Urban, 180ff, Laoust, doctrines, 316ff.

□ المصادر والمراجع :

- ابن بطوطة ، محمد بن عبدالله : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - باريس ، المطبعة الأهلية ، ١٨٧٤-١٨٧٩ (٤ أجزاء) .
- ابن تقي بريدي ، يوسف : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة - القاهرة ، ١٩٦٣ (١٢ جزءاً) .
- ابن تيمية ، تقي الدين : بغية المرتد - القاهرة ، ١٣٢٣ هـ .
- ابن تيمية ، تقي الدين : رسائل ومسائل - القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .
- ابن تيمية ، تقي الدين : فتاوى - القاهرة ، ١٣٢٥ - ١٣٢٩ هـ (٥ أجزاء) .
- ابن تيمية ، تقي الدين : كتاب السياسة الشرعية - القاهرة ، ١٣١٦ هـ .
- ابن تيمية ، تقي الدين : مجموعة الرسائل الكبرى - القاهرة ، ١٣٢٣ هـ .
- ابن جبير : رحلة ابن جبير : حسين - بيروت ، صادر ، ١٩٦١ .
- ابن طولون ، محمد بن علي : تاريخ الصالحيه - دمشق ، ١٩٤٩ (جزءان) .
- ابن عربي ، محيي الدين : ترجمان الأشواق - بيروت ، صادر ، ١٩٦٣ .
- ابن الفرات ، محمد : تاريخ ابن الفرات - بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٣٨ ، جزء ٨ و ٩ .
- ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - القاهرة ، ١٩٢٣ ، جزء ١ .
- ابن قدامة ، موفق الدين : المغني - القاهرة ، ١٣٤٦ - ١٣٤٨ هـ (١٢ جزءاً) .
- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر : البداية والنهاية - القاهرة ، ١٣٥٨ هـ (جزء ١٤) .
- أبو شامة ، عبدالرحمن : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (ذيل كتاب الروضتين) - القاهرة ، ١٩٤٧ .
- أبو الفدا ، اسماعيل بن علي : تقويم البلدان ، (تحقيق رينو دي سلان) - باريس ، ١٨٤٠ .
- أبو الفدا ، اسماعيل بن علي : المختصر في أخبار البشر - استانبول ، ١٢٦٨ هـ .
- البكري ، عبدالله : نزهة الأعلام في محاسن الشام - القاهرة ، ١٣٤١ هـ .
- زاترستن ، ك.ق. (محقق) : تاريخ سلاطين المماليك - لندن ، ١٩١٩ .
- الشيزري ، عبدالرحمن : نهاية الرتبة في طلب الحسبة - القاهرة ، ١٩٤٦ .
- الظاهر ، خليل : زبدة كشف الممالك ، (تحقيق رافيسو) - باريس ، ١٨٩١ .
- القلقشندي ، شهاب الدين : صبح الأعشى - القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٤ (جزء ١٤) .
- الحسن ، عبدالقادر : تاريخ سورية الاقتصادي - دمشق ١٣٤٢ هـ .
- القفطي : تاريخ الحكماء - ليبزغ ، ١٣٢٠ هـ .
- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء - بيروت ، ١٩٦٥ .
- ابن عبدالسلام : ترغيب أهل الاسلام في سكنى الشام - القدس ١٩٤٠ .
- م. ك. ليونز - و. د. ا. ب. جاكسون : صلاح الدين (مترجم) - بيروت ، ١٩٨٨ .
- زيادة ، نقولا : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ، ط ٢ - بيروت ، ١٩٨٦ .
- زيادة نقولا : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ط ٢ - بيروت ، ١٩٨٠ .



Afifi, A. E., «The Mystical Philosophy of Muhyid Din Ibn ul 'Arabi», Cambridge, 1939.

Arberry, Arthur J., «Sufism», London, 1950.

Benjamin of Tudela, «The Travels of Rabbi Benjamin, In Early Travels in Palestine», (ed. by Th. Wright), London, 1848.

Brocquiere, Bertrandon de la, «The Travels of Bertrandon de la Brocquiere», (ed. by Th. Wright), London, 1848.

Ecochard, M. and Claude Le Cœur, «Les Baines des Damas», Beirut, 1940.

Frescabaldi, Leonardo and others, «Visit to the Holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in A.D. 1384», Jerusalem, 1948.

Gaudfroy-Demombyne, M., «La Syrie a l'époque de Mamlouks d'après les Auteurs Arabes», Paris, 1923.

Gibb, Sir Hamilton, «Arabic Literature », Oxford, 1963 (2nd ed.).

Laoust, Henri, «Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques de Taki-Din Ahmad B. Taymiyya », Cairo, 1939.

Niccolo of Poggobonsi, «A Voyage Beyond the Seas», Jerusalem, 1945.

Sauvaget, Jean, «Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas», «Revue Etudes Islamiques», 1934.

Smith, Margaret, «Readings from the Mystics of Islam», London, 1950.

Terresse, Rene, «L'Irrigation dans la Ghouta de Damas», «Revue Etudes Islamiques», 1929.

Ziadeh, Nicola A., « Urban Life in Syria under the Early Mamluks», Beirut, 1953.

Nashabe, Hisham, Muslim Educational Institutions (Beirut, 1989).

Barlet, Robert, The Making of Europe Allen Laue The Penguin Press, 1993.

Makdisi, George, The Rise of Colleges, (Edinburgh, 1981).

Housley, Norman, The Later Crusades (OUP 1992).

★ ★ ★